

في الإسلام

تهذيب النفس

بقلم الدكتور يحيى اصمغر الدرديري

إذا كان الجسم يكتسب مناعته ضد الأمراض بما هو كامن فيه من قوة الحياة فكذلك النفس تؤتى مناعتها بما أحرزت من فضائل واعتصمت بها تجاه نيار الشهوات الجارفة وما يكمن فيها من رذائل وتقاوض إذا كانت المناعة الجسدية لا تبقى إلا بالمحافظة على سلامة الجسم بالعناية به . فكذلك النفس لا يكتسب مناعتها وقوتها إلا بالتجلى بتكريم الأخلاق .

لأسبيل إلى تربية الخلق القويم واكتساب التعزية إلا بالسكدة والمناجزة ، وذلك يحتاج إلى مراعاة النفس وتدريبها وضبطها وتنقيتها . وجانية الأوساط السيئة . ونزك الاشتغال بما لا يفيد . قد يمرض لأمراض تزداد وزلل وحذل لان وقتي . وقد يصادف كثير ممن صواب لابد من تذييلها . إلا أنه لا يلبق بساحب الروح العالبة والقلب الذي لا يعرف المال أن يجتج إلى القنوط من الفوز والنجاح .

إن من قوانين الله عز وجل التي تنطبق على الأخلاق أن الفعل وردة متساويين . وللخير والشر رد فعل على فاعليها . ولها فبمن يعاملت عليه أثر يشبهها . وكل عمل أو فكر أو شعور يساعد على تربية الطبع والمادة والإدراك لابد أن يؤثر في أعمالنا طول الحياة . والأخلاق إذن دأمة التمييز فاما إلى ترقق وإما إلى تدن . قال مستر ركبس : « مامن هفوة هفوت ولا حماقة ارتكبت إلا وتورق فتنفس سرورى وتنحيف قوة لقمى وإدراكى وبصيرتى وكل مجهود بذلت فى ماشى بل كل لمعة حق وخير فى ذلك المجهود ثابتة الآن تعينى على إتقان ماأنا فيه »

إن مجرد التفكير فى عمل الخير يلقى على النفس غبطة وسرورا وكذلك التفكير فى الشر يخرج النفس إلى حد الغضب والقلق ، فإذا تحققت الفكرة بالعمل وجدت جزاءها من الناس من مادحين وملاحين وناقرين ، وقد أبان القرآن الكريم ذلك فى إنجاز وحسن بيان مبشرا

ونذيراً قائلاً : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) . ووجب على العاقل أن يحسن نفسه باكتساب الفضائل لأن فيها طعاماً نبينته وفيها سعادته ، وأن يتحاشى الرذيلة لأن فيها فلقه وشقاهه .

لاكتساب المنفعة النفسية ضد الرذيلة والنشر توجد طرق عدة ، منها طريق الفلاسفة والمتصوفة . وهي محاربة شهوات النفس وقمعها والاكتفاء من المأكل والمشرب بما يبقى من الحياة الإنسانية والعناية بتنقيف النفس من ناحية العلم والعبادة والجد في السبر للوصول إلى الحقيقة أو بعبارة أوضح إلى الله عز وجل .

هؤلاء يعملون لترقية أنفسهم عن طريق التفكير والمراقبة والمزلة والطلوة واستقصاء سنن النكوت لا إلى الثروة والجاه وما إلى ذلك ولكن ليدودوا المادة ويرتقوا إلى عالم الروح .

زار أحد الخطباء المفوهين الفيلسوف أبيقوس ليعلم شيئاً عن فلسفته ورأى الفيلسوف أن الزائر سيء القصد ولم يرد أن يأخذ عنه شيئاً فلم يقابلة بمقابلة تم عن الدعاة والاحتقار ، ثم قال : إن عرضك انتقاد مبادئى ولست براعب في أن تأخذ عنى شيئاً . فقال الزائر أجل . فإني إن علمت بمبادئك أصبحت فقيراً مثلك لا مال ولا متاع ولا أبهة . قال الفيلسوف إني لا حاجة لي إلى المال والمتاع وما أنت إلا أفقر مني بعد فإني لأجأ إلى عظيم رغبة في جاه ولست أبالي بأية عين ينظر إلى القيصر . وليس الملق من شبحي . هذا متاعى وهو خير مما تملك من الذهب . إن لك متاعاً من ذهب . وأما عقلك وشهواتك ومبادئك فن طين . وإن لي من عقلى للملكا كبيرا أجد فيه ما شئت من العمل المقيد السميد : أما حملك فأراه إلا خيراً مضارباً لا ثم له . وإذا كان كل ما تملك صغيراً في عينيك فإن ما أملك أنا كبير في عيني فأنت لا أحد لمطامعك وأما أنا فتشروع بما عندى ..

قال كثير من الناس في طريق الزهد والتصوف ومحاربة اللذات الحسية وترك العمل اعتماداً على التوكل فجوعوا منهم البطون وعروا الأجسام لقر الشتاء وقبظ الصيف وتركوا الدنيا ومن يعملون . وقد ضل الكثير منهم وتلفت نفسه وجسده مما لأنه سلك الطريق من جهل ولم يتبين سنن الشرع الشريف ولم يهتد إلى العقل المنير .

اليدن كالمطية ولا يد من تغذية المطية والاهتمام بها وإذا أهملت ذلك كان سبباً للوقوف عن السير ، وقد روى سلمان رضي الله عنه يحمل على حائفة طعاماً ثقيل له أتقبل عندها وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال . النفس إذا أحرزت قوتها انهدأ أنت . وقال سفيان الثوري وكان يسمى أمير المؤمنين في الحديث ، وكان عالم أمة وطاب لها وزانها : « إذا حصلت على قوت شهر قتمت يد » ومن قوله « لأن أخلف عشرة آلاف دينار أحاسب عليها أحب إلى من أن أحتاج إلى الناس .

والزهد عنده ليس بأكل الخشن ولا لبس الغليظ والعبادة . وإنما الزهد فصر الأمل .
وإن الرجل ليكره عنده من المال وهو زاعد في الدنيا وإن الرجل ليكون فقيراً وهو راعب فيها .
يلبثي أن يفسح للنفس فيما تشتهي من المطاعم ، لأنها إنما تختار ما يلائمها فإذا تمها
الزاهد في مثل هذا عاد على بدنه بالضرر . ولولا جوارب الباطن ما بقي البدن ،
وهذا ما يتفق مع الرأي الحديث : إن الوظيفة تسمى العضو . فإذا أهمل العضو من أن يؤدي
وظيفته ضمير وتلاشى بل وتلف .

الشهوة مرية ورائد . ونعم الباحث على مصلحة البدن غير أنها إذا أفرطت وقع الأذى
ومضى منته ما يريد على الإطلاق مع الأمن من فساد العاقبة ماد ذلك بفساد أحوال النفس
ووهن الجسم واختلاف العقم الذي تتداعى به . وذلك أن تمنعها الماء عند اشتداد العطش
والغذاء عند الجوع . والنوم عند غلبته . وقد قيل . إن المؤمن إذا لم يتراوح بالشكوى فقله الكمد .
وقد أبان التبرع سبل التهذيب والولاية وذلك بالتجلى بمكارم الأخلاق وملازمة أداء
الواجب والقصد في الحياة ، وقد لزم العارفون من أرباب الرياضيات سبب الله وأوامره
فوصلوا إلى معرفة واسعة وعلم غزير . فهم العارف بالله سيدي إبراهيم النسوي وكان عالم
عصره وزاعده . جاءه رجل فقال . أريد أن أسلك طريق الحقيقة فقال يا ولدي إزم أولاً
طريق التمسك على كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ . ومن قوله : (إذا كنت ولدي حقاً
وتسبى صدقاً . فأخص الرزق لله تعالى واجعل واعظك من قلبك وكفى عمالاً ولا تنس
لاحد درهماً . إن الفقير الصادق هو الذي يطعم ولا يطعم . ويعطى ولا يعطى . إن الرضا
في الطريق حرام) وقد عرف رضى الله عنه الزهد بأنه . ليس خروج العبد عن الشيء ،
وإنما الزهد أن يكون داخلًا في إمارته وصنمته . وأن النفس لا تنمو إلى الملاءم إلا
بالابتعاد عن الرذائل والتجلى بالفضائل فهو يقول : (إذا أردت أن تجتمع على ربك فطهر
باطنك وضميرك من الحيت والنية الرديئة والأضمار بالسوء لا أحد من خلق الله . وقوله (أهل
التزمية يبطلون الصلاة باللعن الفاحش وأهل الحقيقة يبطلون الصلاة باللمن الفاحش فإذا كان
الإنسان في باطنه حقداً وحسداً وسوء ظن بأحد أو محبةً للدنيا فصلاته باطلة لأن أهل هذه
الأخلاق في حجاب من شهود عظيمة الله تعالى ومن كان قلبه محجوباً فاصلى لأن الصلاة صلة
بالله) . لا يستطيع الإنسان تهذيب نفسه والرقى بها إلى مدارج السكالك إلا عن طريق العلم
الصحيح والنزول على أوامره مما لى من مشقة وعنت . وذلك لا يكون إلا بالارادة القوية
التي لا تعرف هواناً في التمسك بالحق ونصرته . يقول الأستاذ الشيخ أبو الحسن الشاذلي :
لا كبيرة عندنا أكبر من اثنتين (١) حب الدنيا بالابتعاد (٢) والمقام على الجهل بالرضا : لأن
حب الدنيا رأس كل خطيئة والمقام على الجهل أصل كل معصية

إذا أردنا أن نوجز في ذكر الأسباب التي ترقى بالنفس إلى الفضيلة ونكون هاديا من التدهور فأهملها . أن يعرف الإنسان ربه (أولا) وأن يلزم المرء واجبه (ثانيا) فأما معرفة الله عن طريق اليقين بأنه هو الخالق والرازق والمحيي والمميت والمتصرف في ملكه بالحكمة والعدل والرحمة وأن الإنسان ضعيف بنفسه قوي بربه يجمع قوي الإنسان إلى نقطة دائرة الارتكاز ويكون عندهما واحدا وهو الوصول إلى الله عن الطريق الذي ارتضاه ، وقد أبان ذلك في القرآن الكريم وعرفنا الحياة وكنهها وأنها لم تكن ألا امتحانا دائما منذ أن يولد الإنسان إلى أن يموت . فهي سلسلة اختبارات منصلة من مرض وصحة وفقير وغنى وإيسر وعسر ، ونجاح وإخفاق ، وهبوط و صعود . ولا يفوز بالتجاح إلا من جد ودأوم على العمل وصبر ، وقد قيل . (الحكيم يتعلم تدريجا ألا يكلف الحياة شططا ولا يرجو منها ما هو فوق طاقتها فتراها مستمدا لقبول الخيبة وهو يلمس النجاح بالوسائل الكريمة وتراه يفتح نفسه للذم بحتم المصيبة صابرا . أما الشكوى بالحياة والمناداة عليها باليأس فلن تكون إلا عذبة الجدوى ولا ينفع إلا العمل في الطريق السوي يصحبه الجهد وتشمى فيه البشاشة) إن القيام بأداء حق الله فيه تمرير النفس من عبودية غير الله وذلك هو الشرط الأساسي لحصاة النفس من الشرور وتسرب الرذيلة إليها لأن الخبيث والهم لا يجطان إلا على النفس الفارغة أو التي تعمل ولا غاية لها

وأما التزام المرء واجبه فهو للظاهر الأول الأيمان وهو أس الفضيلة ووسيلة النفس إلى الرقى ، لأن الواجب تعدد مظاهره ووسائله . فهناك واجب نحو الله وهو الواجب الأول من تظهير النفس من السوء ، وأداء الصلاة ، والصيام ، والحج والزكاة وما إلى ذلك . وواجب نفسي وهو السعي لتهديتها وترقيتها من الناحية الأدبية والعلمية ، والسعي لسحب الرزق من طريق شريف .

وواجب نحو الوطن بالاشتراك في سبيل رفعتة عن طريق إتقان الواجبات الأخرى وبذلك ما يمكن بذله في منافع العامة . فالطالب يحفظ دروسه والصانع بأقنان صنعتة ، والتاجر بالأمانة في تجارته ، والزارع بالعناية بزراعته ، والطبيب والمهندس والقاضي والكتاب والسياسي بالجهد والاستقامة كل في دائرة عمله مجدا في أداء وظيفته على خير وجه .

إن أداء الواجب على أحسن حال يتطلب آناة وصبرا ومصابرة على مايلقاه الإنسان في سبيله من عقبات ومايصادفه من نوائب ونازلات . وليعلم أن مايعترضه من محن إن هي إلا وسائل لترقية النفس قال جرير تبارك : النوازل والسكراب معهد ربني فيه الفضيلة لأنها تنزل نفوسنا على حكم الرزاة وتلزم آراءنا حلا الاعتدال وتصلح الحرق . وتوفيق نيارا اقرارا

الآثام . وما كان ربك والرحمة والحكمة البالغة صفته في حكم العالم . ليحبل الأحران على ما يرى من الكثرة ، وما كان البتلى بها أفضل الناس وأحكمهم لولا أن حكيمته اقتضت أن تكون مقراً للراحة ، ومنيتاً للقضية . وبجبال لا اكتساب الحكمة . والنفاق بالصبر ومطلب العزة وبإيا للعبد) .

وقصارى القول أن الطريق المؤدى لمناعة النفس وحمايتها من الفساد تراه في العمل المستمر لأداء الواجب وأن يكون القصد من العمل هو ترقية النفس وأن تسمو على المادية لأن تكون عبداً خاضعاً لها . لأن الله تعالى خلق الإنسان ليكون سيداً ينشع بما في هذا الكون فليحذر من أن تأسره الحياة بزخرفة فتذله لها وقد أبان لنا الرسول صلى الله عليه وسلم في السبيل واضحا في إيماز وجزالة لفظ فقال ، « أوصانى ربى بتمتع أوصيكم بها : أوصانى بالأخلاص في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أعزو من تالنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صغى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبدا » .

وقد جمع هذا الحديث الشريف كل مدارك الأخلاق ، والطريق الذى يوصل النفس الإنسانية إلى ذروة . ونبالة القصد والسعادة في الدارين . ونسأل الله التوفيق والسداد إلى طريقه المستقيم .

ركنور يحيى أصرم المرادى

في متعاضد

أبها الرام الذى ظن أنى	لا أدوق الرقاد خشبة بأسه
قف تعقل فلسف أول سار	- عن نجوم الدجى - أشاح برأسه ١١
أنت بالخط - ليس إلا - سعيد	كيف بالخط لوهدمت بنفأسه ٢٢
خفف الوطء ، إن في الأرض صرعى	لإيمان الذى هنتت بكأسه ...
أنت من موطنى ، وجاهلك هذا	جاء من طاش في الحياة بكأسه
شبرا النعلة	عبد الغنى سلامة

غريزة الغضب

وأثرها في حياة الإنسان

الغضب غريزة في الإنسان ككلى العواطف التي تنميها في نفسه أو تتعامل منها مستلزمات الحياة وعوامل التكويّن والنهذيب ، والغضب أكثر ما يأخذ النفس ، بمؤثر خارجي مفاجيء ، ولا خيار للذهن أو الميل فيه ، ومع هذا فتبورات الغضب كثيرة ، متوفرة في معترك الحياة ومشاكل العيش ، وطبيعى أن الإنسان إذا تعرد العبر على بواعث الغضب ، وراود النفس على قلة التأثير بتلك البواعث ، كانت لديه غريزة الغضب مادة غير جامحة بحيث يضبطها العقل عند ثورانها أو تزوعها بالنفس إلى الشر ، وعلى النقيض من ذلك ، إذا أذعن الإنسان لسكلى ما يثير الغضب ، وجفقت به نفسه في غير روية مع كراهات الأحداث ومر الطلوع ، صار وجدان الغضب في النفس قوياً يملك زمام المشاعر عند ثورته ، ويحتجج وراءه العقل ، وتضعف دونه الإرادة ، فيندفع بصاحبه في السخف اندفاع السيل إلى منحدره ، أو ينطلق به في الشر انطلاق المذوق إلى مرماه .

ولقد شبه الإمام الغزالي رأس الغاضب (بكهف أضربت فيه نار فأسود جوهه ، وحتى مستقره ، وانتقلت جوانبه بالدخان ، وكان فيه مراح مضيء فانطقاً نوره) .

نقرأ هذا ومثل هذا ثم نلتبس الرجل الذى يعتاد الغضب ، ولحم حمر الحماقة إلى ما يتعاشاه العقلاء ، فقد تسلبه رضا الآل والأصحاب ، أو تجعله غميرة العيون ، أو تلجئه إلى اعتذار مخجل ، أو تمنطف به إلى مثلبة يندى لها الجبين ، إلى ما يقوته قرصة أو يوقمه في ورطة ، نلتبس ذلك الرجل فلم يحبه ولو بجنائنه في كل جيل ، فأما ما التاريخ ، كثيراً ما نقرأه وهو يغمز في ذكريات الرجال ، بما سجله الغضب عليهم ، وخلدته الحماقة لهم ، قد كآنى بكل غاضب ناثر وهو (أنطيبوس) في غضبه على (شيشرون) الفيلسوف الرومانى فيثور به ويقذله لا لشيء جناه ، سوى فسكرة نبيلة نادى بها ذلك الفيلسوف ، دفماً لفساد محبى كان يعم وطنه وقتذاك ، ثم لم تبدأ ثورة الغضب في نفس (أنطيبوس) بروعة القتل وجلال الموت ، بل دفعه الغضب ثانياً إلى أن يلقي بين يدي زوجته (ثوليقيسا) برأس الفيلسوف اللبيل ، تمثل به أشنع تمثيل أو كآنى بكل غاضب وهو الوليد بن يزيد عندما فتح المصحف الشريف ، فوقع بصره على هذه الآية الكريمة : (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) فيدعه

الغضب إلى تمزيق المصحف والتفوه بقارس الكلام ، أو كآتي بكل غضب وهو المأمور
عند ما سمع شعرا (لمكروك) في مدح أي ذاك فتعور نفسه بالغضب ، ويستحضر الشاعر
ويهدر دمه ، وما لنا نذهب إلى البعيد طويلا ، ولا ننظر أمامنا : فتجد قبتنا من العبر ما يلقي
شائنا كل يوم دروساً قاسية في نتائج الغضب ومخلفات صفته ، فكيف من زوجية قامت
وصحرت ، ولم تلبث حتى دكت أحمدها غضبة ، كان أقل الحلم يدفعها ، وأخف العبر يدفع
بأثرها ، وكف من صديقين ماشا على حب متبادل ، وحالت بينهما غضبة ، وطوحت بهما في
فاحش المهجو ، وبنيء السباب ، وكف في مجموعة التعليم وهي أولى الناس بالحلم والعبر وكرم
الخلق ، كم فيها من زميل يغضب على زميله لمجرد نقاش أو حوار فيحقد عليه ، ويحذل له
الضغن ، ويشهر به ويتصيد له سوء الأذى ، وكف من رئيس صغير أو كبير زاه يغضب على
مرؤسه لأمره عين ، ويأخذه به في أمنت والمخربة بدل الحكمة والمصافة وكف
وكف يربنا الغضب في الناس من سوء وأحوال ، فأين ذلك الغضب الأعوج ، من هنا
الذي يتزل بالنفس الكريمة إلى حد متدل ، فيثير في الإنسان للخسوة والحاس ، ويوقف
فيه كوا من الرجولة ، في حال مترفة للعقل فيها نصيب كبير ، يمكن صاحبه من الدفع
عن الذات والردد عن الكرامة أمام كل اعتداء أو ازدراء مع اتباع الاحوط ، كان
المصطفى (ﷺ) إذا رأى منكرا أو سمع مسكرا في الحق ، يغضب حتى تحمر وجنتاه
ولم يخرج غضبه عن حجة الصواب ، وطبعي أن الإنسان لا يصل إلى مثل هذه المرتبة
في كرم الخلق إلا بتوطئ النفس على المسكرا وتمزيقها على الحلم بالصبر وكظم النياط
والشماسح والمنع عن الكثير ، قال عليه الصلاة والسلام : (ابتغوا الرقة عند الله) ولقد
سئل (صلى الله عليه وسلم) عن هذه الرقة فقال :

(تعبد من قطمك ، وتمطى من حرمك ، وتحلم صمن جهل عليك) ولقد قال علي كرم
الله وجهه في فضل الحلم : (إن أول ما عرض للخليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل)
طري بالماقل أن ينال بحلمه وصبره أكثر ماقد يناله بالغضب - روى عن الإحنف بن قيس
أن رجلا جاءه وطلق عليه والأحنف سامع صامت مطرق الرأس ، هادىء النفس ، فلما
رآه الرجل صابرا كرميا غير آبه به ، عض إصبعه وصاح قائلا : (يا سره ياه أو الله ما يحتمه من
جوابي إلا هوأني عليه) وفي هذا مصداق لقول القائل :

إني رأيت وللأيام تجرية للصبر طافية محمودة الأثر
زعموا أن سقراط بنى زوجة شريفة كانت تعكر من صفوه وتكدر من سلمه ، وقد طالج
في طباعها وأعبته الحبل ، فأشار عليه مرادوه بالخلاص منها ، فقال لهم : (دعوني بها فأني لا

أحرق عليها بهذه المادامة السيئة فهي تملأني فضيلة الصبر) ألا ليت شعري أن يكون لنا في ذلك أسوة؟

قال ابن المقفع: (إني علمت موطناً واحداً فإن قدرت أن تستقبل الجبد بالهزل فيه أصيبت الرأي وظهرت على الأقران، وذلك أن يتوردك متورداً بالقسوة (١) والغضب فتجيبه إجابة الأزل المتاعب برحب من الفرع وظلالة من الوجه وثبات من المنطق) ولقد جمع ذلك قول الله تعالى: (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، إذفع بالتي هي ألحق بالتي أحسن فأذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وفى حميم).

عبر الصمير بربوبى
رئيس مدرسة أبى غنيمه

(دسوق)

ألروح

رغمك ربى قد خلقت لنا قلوباً من حنائك
أنفثها بمودة فطنى الغرام على عبادك
خلق الجلال طاهراً هل شأنا من جمالك
يندى القلوب فتستقر على نعيم من جلايك
لو كان روحى لم يكن
سبحانك اللهم قد أبرزت سرا فى جمالك
فتذا يحركه ويشعره اللذائذ من ألائك

لم يرن جنمى عن جمالك

من أى عهد كان لروح تقاذ فى الجماد؟
من قديم كان لروح حياة لا ابتداء
مر حينئذاً للقديم فهل شمس أو ضياء؟

أمن العدل يكون الروح مأسوراً للصخور
والروح يلهو بالجماد كأنه فسكر بغير؟

محمد السباعي
بمدرسة كوم اشقين

(١) التمهيد - قارن الكلام